



ما الذي سيكون عليه مصير المنطقة العربية، إذا ما تحالف ضدها عدوها التقليديان، إيران من الشرق وإسرائيل من الغرب؟ ربما كان هناك من يعتقد باستحالة قيام تحالف بين دولتين، تبدوان مختلفتين في كل شيء، متفقتين على عدائهما العرب، لكنه عاقل من يستبق الأخطار، ويحسب حساباً للواقع التي يقلب التراكم في شروط تحققها الاحتمالات إلى ممكناً.

هل هناك ما يشير، اليوم، إلى وقائع، يعني تتحققها انتقال التحالف بين إيران وإسرائيل من احتمال إلى واقع، تغذيه استراتيجيات الدولتين، القائمة على العداء للعرب والعمل للسيطرة عليهم، بإيقائهم متفرقين ومختلفين، في مرحلة ما قبل أموية، لا يرافقون ما يكفي من تقدم للخروج من مأزق تاريخي يعيشونه منذ عشرة قرون؟

تقول الواقع إن وضع العرب كان قبل ثورة إيران المسمى إسلامية أحسن بكثير منه اليوم، وهذه لعبت دوراً خطيراً في إخراجهم من مشروع قومي، أسهمت في تعثره، إلى زمن مذهبي/ طائفي تشتتني ومدمر، مكّن طهران من اختراق مجتمعاتهم، والتسلل إلى بلدانهم، لغزوها من الداخل والسيطرة عليها بقوة السلاح، كما حدث، أمس، في لبنان والعراق وسوريا، ويحدث اليوم في اليمن.

وكان قيام إسرائيل قد سرع تخلق الزمن القومي، وأقنع العرب بضرورة أن يكون لهم مشروع عابر لدولهم المحلية، المختلفة والضعفية التي كانت تمر في أطوار انتقالية، تمسك بمعظم مفاتيحها قوى خارجية معادية للنهوض العربي، لما كان سيترتب على نهوضهم وتوحدهم من تحولات في النظام الدولي، ومن مخاطر على شطره الرأسمالي. منذ قيامها، كانت إسرائيل تشعر بالعجز عن ترويض جوارها العربي، والسيطرة عليهم، ولم تفض انتصاراتها المتكررة عليه إلى جعل وجودها في القلب منه أمراً نهائياً ومسلمأً به، في حين ركبها ذعر دائم من قدرة العرب على تحمل هزائمهم التي بدا، لوهلا، أنها تشحذ روح التحدى لديهم، مع ما تحمله من مخاطر عليها.

يلتقي الطرفان، الإيراني والصهيوني، على موقف من العرب، يعتبرانه مصلحة وجوية ومشتركة تتحلى السياسة، ويلتقي الطرفان على استراتيجيات تبقى الجوار العربي ممزقاً متلافاً، وأسير فوضى تشن طاقاته، وتحول بينه وبين الانتقال من التخلف إلى الحداثة، بما سيمثله من تغيير جذري في علاقات القوى بينه وبينهما، وسيفرضه من إعادة نظر في حساباتهما التي ستقوم على انزواء إيران داخل حدودها، وقبول إسرائيل بالحقوق الوطنية والتاريخية المشروعة لشعب فلسطين الذي لم تنجح في إخراجه من المعركة المستمرة منذ قرن وربع القرن.

يلتقي الطرفان، الإيراني والإسرائيلي، على العداء للعرب. ومع أن إيران بترت سياساتها تجاههم بعدائها إسرائيل، ورغبتها في تحرير فلسطين، فقد دفع ثمن هذه السياسات العرب وحدهم، نتيجة تحول معركة طهران ضدهم إلى جوهر سياساتها واستراتيجياتها، وإلى غزو يهدد استقلال دولهم ووحدة بلدانهم، لا مكان فيه لأي معركة ضد الصهيونية، الجهة التي ضربت قوى النهضة العربية في حرب يونيو/حزيران 1967، بتوافق مكشوف مع النظام السوري، وضغطت عليها بالاحتلال، إلى أن ركعت أمام أميركا، ومكانت حليفتها اللاحقة، إيران، من المراهنة على ضعفهم وتخلف أوضاعهم وعجز حكوماتهم، لتعلن نفسها وصية على قضيائهم بصورة عامة، وقضية فلسطين بصورة خاصة، وتطرح عليهم مشكلات تتصل بهويتهم ومعتقداتهم، استخدمت خلالها المذهبية سلاحاً يفك بهم، مع أنهم حملة الإسلام ومادته، كما قال سيدنا عمر بن الخطاب (ر)، ويجهز على أي دور قومي قد يمارسونه.

والاليوم، وقد تحقق قسم مهم من الخطط الإيرانية/ الإسرائيلية المتكاملة، ونجحت إيران وإسرائيل في إخراج مصر من المعادلات العربية، وفي تدمير العراق وسوريا واحتلال لبنان، يأتي الدور على الخليج الذي بدأ إسقاطه باحتلال صنعاء من الحوثيين، الأمر الذي بادرت بالرد عليه "عاصفة الحزم" و"عاصفة الأمل"، بينما تواصل أميركا غاراتها على القاعدة في اليمن و"داعش" في العراق، وتجاهل إرهابي إيران وقتال مرتزقتها في حزب الله وعصائب بدر وتنظيم أنصار الله الحوثي إلى جانب بشار الأسد الذي فتح لهم معسكس تدريب قرب مدينة أذرع في حوران، ويقاتلون هناك.

هل تتناقض مصالح إيران وإسرائيل العربية في هذه الحقبة المفصلية من تاريخ العرب؟ أعتقد جازماً أنها لا تتناقض، لأن بقاء العرب موضوعاً للتاريخ، وإدارة أزمتهم ودفعها إلى مزيد من الاستفحال، يحتم تعاؤنها وتكامل دوريهما، والحد من تناقضاتهما، لأنها تضعف قدرتهما على التحكم ببعديهما المشترك، وإيقائه تحت السيطرة، علمًا أن عراب تفاهمتها، أميركا، هو الذي سيشرف على تنسيق خططهما وأداء مؤسساتهما الأمنية والسياسية، وسيوجه جهودهما نحو المزيد فالمزيد من تخريب العالم العربي، وإدامة وتعزيز انقساماته وتمزقه بتقاسم أدوار وظيفية بينهما، يكفل هيمنة كل منهما على قسم من الوطن العربي، والمشرق والخليج خصوصاً، بإيقاع قدر من التدمير فيهما، يقتل مجتمعاتهما من جذورها، ويرميها خارج أوطانها أو يشردها داخلها، لتفقد مقومات وجودها المادية وأواصرها المعنوية، في ظل عمليات قتل منظمة، تطاول جميع بنيتها وأبنائها، لكي لا يطالب عربي، بعد الآن، بالحرية، أو يثور على الظلم والاستبداد، ويتوهم أن لديه القدرة على تغيير أقداره، وفرض إرادته في وطنه.

يقرب عدو العرب من إقامة تحالف أمر واقع يضمهم برعاية أميركا. ماذا نحن فاعلون، وأي خيار يبقى لنا غير الدفاع عن أنفسنا ومقاتلة الطاغوت وأتباعه، دفاعاً عن الوجود العربي أيضاً؛ وماذا ينتظر العرب، إن هزم الشعب السوري، غير مصير أشد هولاً من أي شيء قد يتصوره خيالهم؟

العربي الجديد

المصادر: